الشيخ الفضيل الورتيلاني وأثره الإصلاحي خارج الجزائر 1936م – 1954م

أ/ مولاي عبد القادر
أستاذ بقسم التاريخ
جامعة الجزائر

الملخـــص

ترك الشيخ الفضيل الورتيلاني أثرا إصلاحيا يتعلق بتـــاريخ الجزائـــر والأمـــة العربية والإسلامية. لذا أردت في هذا المقال إبراز دوره الإصلاحي ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفرنسا والمشرق العربي خلال فترتي الأربعينيات والخمسينيات مـــن القرن الماضي.

Résumé

Cet Article concerne les travaux de recherches de cheikh El Foudil Ourtilani dans le domaine social à L'étranger pendant les années quarante et cinquante du 20 Siècle.

تقديم

كانت جمعية العلماء بروادها الإصلاحيين لها أتباع وأنصار في كل جزء من الوطن، ولها شعب "جمع شعبة" ومدارس ومساجد ونواد ثقافية في كل مدينة وقريـــة (**البـــصائر. 1936م**). فقد وحدت أبناء الوطن فكريا وروحيا بعـــد أن حـــاول الإســـتعمار الفرنـــسي تمزيقها، فوزعت المعلمين عبر مدن البلاد وخارجها.

ومن رواد الإصلاح الشيخ **الفضيل الورتيلاني** الذي كان في نظر الإمام عبد الحميـــد بن باديس المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه المصلح، كشخصية فعالـــة فـــي خدمـــة الإسلام واللغة العربية، لذلك كان يقدر فيه مواهبه الفكرية والإصلاحية والتربوية فيرتـــاح لنجاحه.

تستحوذ على نفسية الشيخ الفضيل الورتيلاني اهتمامات وطنه الجزائر وأمته العربية والإسلامية فينطلق مسخرا كل إمكاناته ومواهبه الثقافية والفكرية وتجسيدها على أرض الواقع.

يسجل الأحداث عبر المحافل المحلية والدولية وعبر الصحف والمجلات العربية والإسلامية منذ 1936م حتى آخر يوم في حياته، فهو بمثابة المصلح الإجتماعي محاضرا ومخاطبا ومقارنا ومستخرجا العبر، أعطى للصحافة العربية والإسلامية كل ما يملك بعد أن آمن بأنها الوسيلة الضامنة للاتصال بالشباب داخل الوطن الجزائري وخارجه في إطار الحركة الإصلاحية.

فحمل الشيخ **الفضيل الورتيلاني** للدعوة الإصلاحية بجانب رواد النهضة والإصلاح يعبر بصدق عن الدور البارز والحساس الذي قام به في الجزائر كمعلم ومرشد وواعظ ورحالة، فأصبحت له مكانة مرموقة بين مجموعة من ذوي الخبرة والتجربة في ميدان الإصلاح، فكان الوحيد الذي وقع عليه الإختيار للقيام بمهمة الإصلاح والإرشاد والتربية وسط الجالية الجزائية في فرنسا.

كانت الجالية الجزائرية والمغربية، المقيمة في فرنسا تعاني مختلف الأمراض والآفات الإجتماعية التي تهددها بالانسلاخ والانحراف. فقد نال شرفا في تمثيل نشاط الجمعية فنقل حركة الدعوة الإصلاحية إلى قلب فرنسا(الأكحل، محمد شرفة 1956م) التي شد الرحال إليها في منتصف عام 1936م.

وما أن وقف على أوضاعهم المختلفة التي تبعث على الأسى حتى عزم على تبصيرهم بالدين الإسلامي وإرشادهم إلى الطريق الآمن، ويعطيها من تجربته وخبرته ما ينعشها ويعدها للحياة، تلك طريقته في معالجة النفوس فالتفت حوله العديد من الفئات والشرائح الجزائرية التي قدم لها العلاج الملائم قصد توعيتهم متوكلا على الله وبمعية مجموعة من الأساتذة الذين إلتحقوا به بإيعاز من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (التيجاني، الهاشمي. 1999م).

بدأ العمل في تنبيه العمال المغتربين وتوعيتهم توعية وطنية تجمع بين قوة العقيدة الإسلامية ورسوخ معاني الأخوة في الدين واللغة والوطن والإتحاد والتعاون في السراء

والضراء والتماس العلم والمعرفة حيث كان ينادي بتربية الأفراد لتكوين جيل المستقبل هدفه تهيئة الأرض الصالحة والخصبة لثورة شاملة وإعداد طليعة مستنيرة تعرف معاني الجهاد والصبر والتضحية.

رسخ فيهم الروح الوطنية الصادقة وتوصل مع إخوانه الأساتذة إلى إنشاء وإحداث الأندية ومرا كز للدعوة الإسلامية في مختلف مدن فرنسا حيث توجد مجموعات كثيرة من المهاجرين الجزائريين والمغاربة.

سعى إلى ربط أواصرها بالجاليات العربية الإسلامية الموجودة هناك وإسماع صوت الجزائر المسلمة للعالمين العربي الإسلامي والغربي الأوروبي. واستطاع أن ينقذهم من المهالك التي تهدد باستمرار دينهم ولغتهم ووطنهم بل ومصير حياتهم، بفضل ما كان يقدمه مع مساعديه من دروس ومحاضرات وندوات في ميدان التربية وحسن السلوك ومحاربة الأمية والتفرقة والتصدي لسياسة الإستدمار المعروفة "فرق تسد" في المدارس والأندية التي أنشأها باسم "التهذيب".(الورتيلاني، الفضيل. 1937م).

انطلقت هذه المدارس والنوادي الثقافية تؤدي رسالتها التربوية التعليمية من خلال تنظيم المحاضرات الدينية والسياسية التربوية، وأقام علاقات بين أبناء وطنه الكبير العربي والإسلامي الذين كانوا بفرنسا في مهمات سياسية وعلمية أفرادا وجماعات ساعدوه في تأدية مهمته الإصلاحية والتعليمية بإخلاص ويقول أحد الذين التحقوا به ضمن بعثة جمعية العلماء المسلمين خلال شهر مارس من عام 1937م ما يلي:<<..فانتدبت جمعية العلماء للقيام بهذا العمل في أوساط العمال الجزائريين بفرنسا، وخاصة بباريس ولما توسعت حركة النوادي طلب من الجمعية أن تمده بعلماء وكان غالبا ما يختارهم بنفسه فأمدته بمجموعة كنت من جملتهم>>.(الورتيلاني، الفضيل. 1937م).

التحق به كل من الأستاذ: سعيد صالحي، ومحمد الصالح بن عتيق، وحمزة بكوشة، وسعيد البياني، وفرحات بن الدراجي، وعلى العربي، ومحمد الزاهر، والهادي السنوسي. وتوزع أعضاء البعثة العلمية ليرابط كل عضو في مركزه المخصص له للمساهمة في عملية الإنقاذ ونشر رسالة الوعي القومي وبث الروح الدينية(بن عتيق، الصالح. 1989م).

وعن نشاط البعثة يقول الشيخ محمد الصالح بن عتيق:<<.. وقد سعت هذه البعثة بقيادة الورتيلاني وتوجيهاته في فتح نوادي في مدن مختلفة بفرنسا أهمها "باريس" إذ بلغ عددها ستة ووضعت برنامجا محكما للدروس والمحاضرات وكان الإقبال عليها، مشجعا لنا وأصبح الكثير من العمال يترددون عليها ويتعلمون فيها تعليما منظما حسب البرنامج المسطر للمرحلة الابتدائية والمتوسطة حتى الثانوية>> (بن عتيق، الصالح. 1989م).

أما المواد التي كانت تدرس في هذه المدارس والأندية "السيرة النبوية"، والرياضيات، والتاريخ، وكان الأساتذة يلقون المحاضرات بالتناوب في نادي معين من النوادي التي كان يتردد عليها الطلبة الذين يزاولون دروسهم بالجامعات الفرنسية بالإضافة إلى حضور الشخصيات العلمية والفكرية الوافدة إلى فرنسا وأوروبا، فكانوا يترددون عليها ويشاركونهم أيضا بإلقاء المحاضرات في شتى الميادين "الإرشاد والتوجيه" على الخصوص بجانب الشيخ الفضيل الورتيلاني ومساعديه، ويذكر "الأميري":<< أن الورتيلاني كان دائم النشاط والتحرك، إذ يعمل في النهار على تقديم الدروس وفي الليل يقوم بالاتصالات ويبرمج اللقاءات مع مختلف الشخصيات الإسلامية وغير الإسلامية ويستمر في عمله إلى ساعة متأخرة من الليل>>. (الأميري. 1937م).

ونظرا للدور الذي قام به في أوساط الجماهير بفرنسا قال شاهد عيان:<<..ولقد كان "للورتيلاني" أكبر جهاد في هذه البلاد الأوروبية وفي العاصمة الفرنسية بالذات، حتى أنك لا تشعر في أيامه وأنت بباريس كأنك في إحدى عواصم الشرق من حيث الجو من أبناء المسلمين، يتلقون الدروس ويسمعون المحاضرات، ويؤدون فروض العبادات ويحيون تعاليم الإسلام، وفضائل العروبة ومازلت أذكر تلك الاجتماعات التي كان يخطب فيها مع نخبة من رجال العلم والمعرفة على اختلاف أوطانهم(مرحوم، علي.1970م). إذ بليلة من الليالي تكلم فيها ثمانية عشر خطيبا، كل واحد منهم من قطر خاص، فمن "مصري"إلى "عراقي" إلى"هندي"إلى "ألباني"إلى "جزائري" وهلم جرا>>. (فضلاء، محمد الطاهر. 1970م).

وإذا كانت **الخطابة** من بين وسائل الإقناع وأدوات الكفاح السياسي والتغيير الإجتماعي فإن "الفضيل الورتيلاني" يعد في مقدمة الخطباء حيث كانت له مواهب الخطيب ومميزاته وقدرة على الارتجال لا تبارى (مجلة، المسلمون. 1956م).

كانت الخطابة أحد العناصر الأولية التي نبغ بها "الفضيل الورتيلاني" بفرنسا، وبلغ مكان الصدارة في المشرق العربي، وحقق بها نجاحا في مختلف الأوساط وضمن إطار الحركة الإصلاحية (الصديق، محمد الصالح.1991).

كانت نتائج الخطابات والمحاضرات والدروس التي كان يلقيها ويقدمها للمهاجرين قد رسخت فيهم الوحدة والإتحاد، في الدين واللغة والوطن (الورتيلاني، الفضيل. 1956م).

كونت شبيبة تؤمن بالنضال والجهاد لتحرير الجزائر، التي أصبحت قضية دولية، ومحط أنظار العالم والشخصيات السياسية والعلمية الفاعلة على الساحة العربية والإسلامية. فأصبحت من المدافعين والمناصرين لقضية الجزائر.

ترك الشيخ "الفضيل الورتيلاني" بالجزائر وفرنسا بذور توحيد الصفوف وإعداد العدة والانقضاض على معاقل الاستدمار الفرنسي وقد تهيأت مع نهاية الحرب العالمية الثانيـــة حركة التحرير من أجل نيل الاستقلال لأغلبية الشعوب المستعمرة ومنها العـــالم العربـــي والإسلامي خاصة مصر التي كانت محطة إقامة الشيخ **الفضيل الورتيلاني**.

وأثناء فترة وجوده بالمشرق العربي احتك بعلماء بارزين أمثال "محمد بن عبد الله دراز" و"عبد اللطيف دراز(عبد اللطيف دراز، وكيل الأزهر) "وغيرهما من الشخصيات العلمية وإقامة علاقات متينة مع كبار الشخصيات السياسية في مصر من أدباء وصحفيين. لمحاربة الإستعمار من أجل تحرير المجتمع وإستقلال الشعوب المستعمرة.(كمال، أحمد عادل.1987م). وعليه كثف **الفضيل الورتيلاني** اتصالاته مع الزعماء السياسيين والشخصيات المشرقية بغية إطلاعهم وتعريفهم لكل ما يجري فيها من أحداث وثورة ضد الإحتلال الفرنسي والمستوطنين الأجانب داعيا أصحاب الحل والعقد في جميع الأقطار العربية والإسلامية بوجوب إعانتها ماديا ومعنويا(الشهاب. 1981م).

كان **الفضيل الورتيلاني** شخصية لا تعرف الملل ولا الفشل إذ لا توجد مجلة أو جريدة إلا وكتب فيها عن قضية الجزائر والمغرب الإسلامي بصفة عامة ولا منظمة أو هيئة سياسية أو حزبا أو جمعية أو سلطة مسؤولة إلا واستصرخها لتأيد قضية بلاده وأمته ومنددا بفضائح الإحتلال الأجنبي، ونذكر على سبيل المثال صرخاته عقب مجازر8 ماي

من عام 1945م بمدن الجزائر لسفير فرنسا بالقاهرة بخطابات يفضح فيها مجازر حكومته المرتكبة ضد الشعب الجزائري(الورتيلاني، الفضيل. 1945م).

فقد كان يجاهد بلسانه وقلمه في الصحف مستغيثا تارة ومنددا مستنكرا تارة أخرى عبر محاضراته التي كانت تترك صدى عميقا لدى الجمهور أهلته ليصبح داعيا ومصلحا.

لقد نال الفضيل الورتيلاني رضا زعماء الإصلاح والدعوة ورجال السياسة وكسب ثقتهم فأصبح يستشار في العديد من القضايا السياسية والإجتماعية. ولكثرة ما كان يكتب من مقالات سياسية تنشرها له مختلف الصحف العربية والإسلامية يعالج فيها إشكاليات العصر وقضايا أمته (الورتيلاني، الفضيل. 1954م).

وعن القضية الفلسطينية كتب مقالا بعنوان: هل يعرف العرب هذه الحقائق عن فلسطين؟ قال فيه:<<..أيها العرب أيها المسلمون إليكم أسوق الكلام ومآسي فلسطين وكارثة فلسطين والدعوة إلى التضحية بالمال والأنفس في سبيلها>> (الورتيلاني، الفضيل. 1954م). وعن محنة **اللغة العربية** يقول: "إن اللغة العربية مظهر مقدس من مظاهر كرامة الأمة التي تحترم نفسها وعنوان مجدها ووجودها ولا يجوز أن يقل اعتبار اللغة العربية في مجال الكرامة عن اعتبار العلم والنشيد الوطنيين واللغة العربية ليست لغة الجزائريين وحدهم، وإنما لغة الأمة العربية قاطبة فمن أهان اللغة العربية فإنما يهين العرب أجمعين هذا هو المنطق يوم كان للمنطق سلطان على فكر الإنسان وعلى أساس هذا المنطق أتحدث إليكم اليوم أيها العرب عما أصاب لغتكم من إهانة واضطهاد في عقر دارها (الورتيلاني، الفضيل. 1954م).

لم يقتصر الشيخ "الفضيل الورتيلاني" على هذا الجانب بل كانت له أعمال سياسية بالغة خدمت قضايا وطنه -الجزائر- وبقية دول المغرب الإسلامي من الأعمال التي قام بها في القاهرة مساهمته في تأسيس جمعيات وهيئات ومنظمات سياسية سعى إلى تكوينها هي:

- جمعية الجالية الجزائرية. عام 1942م.
- اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر عام 1942م.
- جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا عام 1944م.

- مكتب تحرير المغرب العربي عام 1944م.
- جمعية الإتحاد المغربي عام 1944م.
- مكتب جمعية العلماء م.ج عام 1949م.
- مكتب تحرير الجزائر عام 1954م.

استطاع الشيخ "الفضيل الورتيلاني" أن يجمع الطاقات النضالية حوله ويقودها نحو أداء الواجب واشترك في عضويتها زعماء الحركات التحررية المغربية، يشاركهم في قضاياهم الوطنية، وعن هذا الموضوع يقول "محمد عبد اللطيف دراز": <<..وكثيرا ما كان يحثني –الورتيلاني– الاشتراك معه في الجمعيات، أو بمشاركتي له في الإحتجاجات حتى أنني فوضت له أن يحتج باسمي متى شاء من غير الرجوع إلي وبعد أن خرج من محنته في اليمن، ورجع إلى مصر جددت له التفويض>>(دراز، محمد عبد اللطيف.1970م).

فجبهة الدفاع عن بلدان إفريقيا الشمالية "برئاسة السيد الخضر حسين" وأمينها العام الشيخ "الفضيل الورتيلاني"، فقد كانت تهدف إلى استقلال ووحدة المغرب العربي، فأصبحت كلمة "الاستقلال" و"الوحدة" من المبادئ الأساسية عند المغاربة جميعا، وتقلصت الإقليمية حتى كادت تختفي تماما.

وعن جهود الشيخ "الفضيل الورتيلاني" في التعريف بقضية الجزائر بالمشرق العربي يقول الشيخ علي مرحوم:<<..والحق أن أول من أخرج الجزائر من محيط النسيان إلى عالم الظهور، والبروز في العالم العربي والإسلامي إنما هو الشيخ "الفضيل الورتيلاني" بلا منازع>>(مرحوم، علي.1970م). أما "توفيق الشاوي" فيذكر في نفس الصدد: <<..إن الورتيلاني لعب دورا هاما في إقناعه بخصوص إنتقاله –توفيق الشاوي– للدراسة والتدريس في فرنسا وأوصاه بالعمل لصالح قضية الجزائر والمغرب الإسلامي. وعندما عاد إلى مصر عام 1947 كان الشيخ الفضيل أول من إلتقى به وقدم له تقريرا مفصلا عن كل ما قام به في باريس>>(مرحوم، علي.1970م).

وعن البعثات العلمية الجزائرية نحو بلدان المشرق العربي فقد نجح الشيخ "الفضيل الورتيلاني" في إقناع الدول العربية الشقيقة، بتقديم العون والمساعدة للطلبة الجزائريين

لمواصلة الدراسة والتكوين، فتوالت البعثات العلمية من الجزائر إلى بعض الدول العربية تحت إشرافه بصفته ممثلا لمكتب "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" بالقاهرة، وقد تم إرسال بعثة إلى "مصر" التي كتب في شأنها الشيخ "عبد الحميد بن باديس" رسالة(عبد الحميد بن باديس 1938م). إلى الشيخ "الفضيل الورتيلاني" جاء فيها: <<..وبعد فإن البعثة الأزهرية تتوقف على أمرين إذن السفر والنفقة فأما الإذن فقد ذكرتم أنه سهل الحصول عليه من هنا ولكم، وأما النفقة فالجمعية غير مقتدرة عليها الآن، لأن ماليتها لا تدخل إلا في آخر سبتمبر إن شاء الله، فأريد منكم أولا أن تحققوا التحصيل على الإذن من هنا لكم أن تعرفوني بما يلزم كل تلميذ سفره لأنظر إذا كان يمكنني تحصيل المطلوب ومن أعضاء البعثة الشيخ **الفضيل الورتيلاني**،

والشيخ إسماعيل أعراب، والشيخ مصعب سعد الجيجلي، والشيخ أحمد حماني، والشيخ محمد الغريزي.

وأما البعثة الشامية فإنني أختار أن تكون من جمعية التربية والتعليم، إذ يمكن أن ترسل من تلاميذها وتلميذاتها ستة أوثمانية، ولامانع من أن يكون الطلب الموجه إلى الوزارة من جمعية العلماء والبعثة من جمعية التربية والتعليم إذ هما كشيء واحد، فأرجو أن تعرفوا الأخ السيد حسين الخضر بهذا وفي هذا المساء قد كاتبته شاكرا ومبينا له عدد البعثة منتظرا جوابه>> (بن باديس،عبد الحميد. 1938م).

وبالنسبة لدفاعه عن قضية الجزائر فقد أسس الشيخ الفضيل الورتيلاني بمعية إخوة له في الإصلاح مكتبا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة لخدمة قضية الجزائر، وتأييد ومناصرة قضايا شمال إفريقيا إذ كان لا يعرف التوقف عن الكتابة، والتصريح والتبليغ بكل ما له علاقة بالحرية والتحرر في العالم لرفع الظلم عن المضطهدين، وجه نداءات ورسائل وحرر عرائض، وكتب برقيات باسمه الخاص وباسم الهيئات والمنظمات –التي أسسها واشترك في تكوينها– إلى المؤتمرات والشخصيات والزعماء عبر الدول مطالبا بإقرار الحقوق ومنددا بممارسات استعمارية داعيا إلى التضامن مع الجزائر. التي يؤكد عنها بقوله:

إن الشعب الجزائري كله حزب واحد وراء الثورة وأن الجزائريين كلهم ثوار، وفي هذا الصدد كتبت البصائر قائلة: <<..وأي حزب أو جمعية لم يدفعها الفضيل إلى مناصرة قضية بلاده وأي ناد لم يخطب ويحاضر فيه وأية صحيفة لم يكتب فيها، وأية مناسبة لم يستغلها لخدمة رسالة وطنية، وأي بلد عربي لم يسافر إليه لأداء هذه الرسالة، وأي منصف لا يقرأ للفضيل برسوخ العقيدة، بالاستقامة والنشاط>>.(الورتيلاني، الفضيل. 1954م).

ومن مصر سافر الشيخ الفضيل الورتيلاني إلى اليمن التي عاشت في فترة الأربعينات من القرن الماضي أوضاعا سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، متدهورة انعكست نتائجها على المجتمع اليمني، نتيجة الوجود البريطاني في الجنوب، والحكم الإمامي في الشمال الذي شهدت البلاد في عهده عزلة تامة عن العالم الخارجي، تطورا، وتقدما، وانفتاحا، على العالم العربي والإسلامي الذي بدأت فيه بوادر النهضة في بعض بلدانه، في الميدان السياسي كإصدار الدساتير، وإنشاء البرلمانات والنهوض العلمي، والتطور الاقتصادي، عكس اليمن التي ظلت في عهد حكم الإمام "يحي" متخلفة في جميع الميادين، يحكمها بالمنطق المذهبي الضيق، لدرجة أن أوائل المتمردين عليه، هم من مريديه في الحكم والمذهب، وأمام هذا الوضع بدأت طلائع يمنية تطالب بالإصلاح وتطوير البلاد، من بناء مدارس، ومستشفيات وتوسيع التجارة.(الورتيلاني، الفضيل. 1956م).

ويأتي الشيخ "الفضيل الورتيلاني" إلى اليمن مارا "بعدن"، التي وجد فيها شتات المعارضة في الداخل والخارج ممزقا، فيعمل على توحيدها، وإرشاد المطالبين بالإصلاح، والمناشدين بالتغيير والتطور، إلى طرق العمل، وجمعهم في رابطة وطنية، كما قارب بينهم وبين أرباب الطموحات السياسية، وصهر مجهوداتهم وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأمالهم، وأمانيهم في بوتقة "الميثاق" (الشامي، أحمد بن محمد. 1956م).

إستطاع "الورتيلاني" بعمله ونشاطه أن يكسب ثقة وتقدير جميع الفئات اليمنية ومحبتها الصادقة. وعن نشاط "الورتيلاني" في اليمن جاء في كتاب "الأمير عبد الله الوزير" مايلي:<<..الفضيل الورتيلاني وأحد من أكبر المجاهدين المسلمين في القرن العشرين، ولعل عمله الإصلاحي في الميدان الإقتصادي والسياسي والفكري باليمن (الشامي، أحمد بن محمد. 1956م).

فهو مهندس الدستور اليمني "عام1948م" ومغير مجرى تاريخ اليمن في القرن العشرين الميلادي، .لمساهمته في التوعية والنصح والتوجيه وتوحيد الصف بين الطبقة السياسية الحاكمة والمعارضة، لخدمة البلاد والنهوض بها إقتصاديا وثقافيا وإجتماعيا والتحرر النهائي من التبعية والوصاية التي فرضها الإستعمار الغربي وعلى رأسه الإستعمار الإنجليزي.

ففي محادثة جرت بين "أحمد الشامي" و"الورتيلاني" ذكر فيها هذا الأخير أنه جاء إلى اليمن بغرض نصح "الإمام" حتى يؤسس مجلسا للشورى ويضع نظاما للحكم ويرسل بعثات علمية وزراعية وصناعية إلى الجامعات في مصر ويؤسس الشركات التجارية ويستثمر موارد البلاد الطبيعية التي ستنهض باليمن وترفع مستواه العلمي والإقتصادي والعمراني لأنه وجد بلاد اليمن في حالة يرثى لها تنعدم فيها أدنى مرافق الحياة الضرورية(الشامي، أحمد بن محمد. 1956م). ويشهد الشامي بأن الشيخ "الفضيل الورتيلاني" عمل بمجرد وصوله إلى اليمن، فقد حقق ما لم يحققه أحد من اليمنيين، فوجد شتات المعارضة في الداخل وفي الخارج وأرشد المطالبين بالإصلاح والمناشدين بالتغيير إلى طرق العمل وجمعهم في رابطة وطنية وقارب بينهم وبين أصحاب الطموحات السياسية والزعامات العلمية والدينية.

بذل الشيخ "الفضيل الورتيلاني" جهودا كبيرة في ميدان الدعوة في سبيل تبليغ رسالته النهضوية التي حملها إلى الشعب اليمني، وقيادته، التي كان لها صدى واسع، حيث أصبح الأحرار والعلماء والساسة يطالبون بالتغيير والقيام بإصلاحات شاملة وعاجلة فاندلعت الثورة التي ذهب ضحيتها الإمام "يحي حميد الدين" يوم17-02-1948م بسبب استعجال الثوار وحماستهم للتجديد، غير أن هذه الثورة أجهضت في مهدها، واتهم "الورتيلاني" بالمشاركة في الثورة.

لكن الحقيقة أن الشيخ "الفضيل الورتيلاني" أثناء الواقعة كان قد سافر رفقة "الوزير" و"الزبيري" في وفد ثلاثي إلى "جدة" لمقابلة الأمين العام للجامعة العربية حتى يتوسط بين الثوار والإمام "يحي" لحقن دماء اليمنيين (الشامي، أحمد بن محمد. 1956م).

وبدأت محنته مع اليمن وبقي مطاردا في أعالي البحار لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر على متن سفينة تجارية "يونانية" كانت تقوم برحلة منتظمة بين مدينة "جدة" و"بيروت" و"الفضيل" على متنها. وظل الشيخ الفضيل الورتيلاني طوال فترة تشرده يراسل صديقه الفلسطيني المجاهد "محمد علي الطاهر أبو الحسن" طالبا منه يد المساعدة لإخراجه من محنته(الورتيلاني، الفضيل.1948م). وعلى إثر ذلك توسط له العديد من أصدقائه لدى الحكومة اللبنانية وقبولها بإنقاذ "الورتيلاني" والسماح له بالنزول في بيروت وتم ذلك فعلا في شهر جوان من عام 1948م.

وبعد تحريات طويلة تيقن الإمام "أحمد" بأن "الورتيلاني" وبعض رفاقه الأحرار ممن اتهمهم في قضية الانقلاب هم بريؤون فأصدر عفوا شاملا تناقلته مختلف الصحف بعناوين بارزة في صفحاتها.

وقد عقب الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" على العفو بمقال قال فيه: <<.. وشاءت فئات من مرضى الحسد والحقد أن يتخذوا من تلك التهمة المتهافتة الشواهد ذريعة للنيل من سمعته والقدح في كرامتـــه وشرفه ثلة من المشارقة وقليل من المغاربة وكنا سمعنا أخبـــار الحادثة في حينها وخبر الاتهام، فلم نستطع –مع جزمنا بكذبه– دفعه بالقول ولا بالفعل وقد سمعنا بعد ذلك ما ملكه أولئك الحسدة والردود فلم نشـــأ أن نوسع قرينتهم دحضـــا ونقضا لعلمنا اليقيـــن بأسباب الحادثة وعلل الاتهام وبالمحرك لهؤلاء الناعقين ولمعرفتنا بالفضيل وظواهره وخوافيه>>.(الإبراهيمي،محمد البشير.1956م).

ويصرح الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" عن قرارَ العفو بقوله: <<..وإذا كان العفو لا يكون إلا عن جان، فإقراره إقرار للجناية، ومتى كان "الفضيل" جانيا حتى يعفى عنه أو حتى يكون العفو عنه مدعاة للسرور والإبتهاج؟ وقد وقع لنا ذلك مع الإستعمار يظلمنا ثم يعفو عنا، فيقول: عفوت عنكم فلا يكون أحز في نفوسنا ظلمه إلا عفوه..إننا نعلن بنيابة عن الأستاذ "الفضيل الورتيلاني" بما لنا عليه من حق الأبـــوة، أنه يستحق التبرئة والاعتذار إليه، لا العفو.

إذا كانت العقول قد تابت إلى رشدها، وطهر الجو من الروائح الإستعمارية التي أفسدته، أما إذا كان "الإمام" لا يحسن الإمامة، وكان السيف لا يقطع إلا أوصال جالبة، فخير

للفضيل أن تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق من أن تكتب في تاريخه الحافل، وهي أنه مجرم معفو عنه>>.(الإبراهيمي، محمد البشير.1951م). هدفنا من وراء هذه الأقوال والشهادات الحية، الصادرة عن مختلف الزعماء والشخصيات الهامة، اليمنية والعربية والجزائرية التي عاصرته، ومنهم ممن عاشوا معه جنبا إلى جنب في اليمن، حول اتهامه وصدور العفو عنه، حتى لا يبقى أي شك يراود القارئ بخصوص براءة "الفضيل الورتيلاني" من كل التهم والشائعات التي أثيرت سعيا لتشويه سمعته الدينية والإصلاحية، في الفترة التي كانت ظروفه جد صعبة حيث كانت تلاحقه أكثر من حكومة استعمارية، لا لشيء سوى لكونه كان دائما وفي كل مكان حل فيه يتحدث عن الثورة الجزائرية وكفاح شعبها العربي المسلم ضد الإحتلال الفرنسي، الذي فجرته في الفاتح من شهر نوفمبر 1954م.

الخـــاتمـــة

ذلك هو أثر الشيخ الفضيل الورتيلاني وهو ينتقل من فرنسا إلى القاهرة منها إلى اليمن ثم إلى بيروت وبعدها إلى تركيا وهي العواصم التي أمضى فيها بقية حياته مجاهدا بقلمه ولسانه مناضلا ومصلحا ولم تكن هذه الرحلات سهلة وبسيطة بل كانت تحاكيها ظروف صعبة عاشها الورتيلاني، بإعتباره ملاحقا من طرف أكثر من حكومة استعمارية، لنشاطاته الإصلاحية في مجال مكافحة الفكر الاستعماري عمل مقيما ومسافرا وكتب المقالات الطويلة في الصحف الكبرى.

فعمله ونضاله خارج الجزائر جعله يؤمن بأن الإصلاح هو خير سبيل للجزائر وشعبها. إن حث الشيخ الفضيل الورتيلاني أبناء الجزائر في المهجر على النهضة والتأكيد عليها، لأنها الخلاص الوحيد من ربقة التخلف والجهل والتبعية والاستعمار، معتبرا أن النهضة بمفهومها الواسع من مسؤولية العلماء والدعاة والمصلحون.

إن دوره كان واضحا من خلال كتاباته ومقالاته التي عالجت قضايا اجتماعية وثقافية كان لها الأثر البارز في إيقاض أبناء شعبه خصوصا الجالية الجزائرية والمغربية التي كانت عرضة للانصهار والتغريب، حيث تمت توعيتهم وإحساسهم بوطنيتهم.

إن الدور الفعال الذي لعبه الشيخ لوضع أسس إصلاحية قوية لصالح أبناء الجالية الجزائرية في بلاد المهجر وتحديدا بفرنسا جعلهم يعودون إلى ذاتيتهم وهويتهم الوطنية والإسلامية.

إن الدور الكبير والفعال للشيخ الفضيل الورتيلاني ببلاد المشرق العربي جعله يبرز كمصلح وداعية للاعتزاز بالانتماء القومي والإسلامي، وذلك في كل من مصر واليمن ولبنان وغيرهم.

إن تعريف الشيخ الفضيل الورتيلاني بالثورة الجزائرية محليا ودوليا جعله يكسب لها التأييد والدعم والمساندة.

إن تردد اسم الشيخ الفضيل الورتيلاني على لسان كل مصلح وداعية في المغرب والمشرق العربيين لخير دليل على أعماله الإصلاحية التي قام بها داخل الجزائر وخارجها فرحمة الله عليه.

الهوامش:

(1) البصائر: س1، قسنطينة 1936م.
(2) محمد شرفة الأكحل: الفضيل الورتيلاني والجالية الجزائرية في فرنسا، البصائر، س2، قسنطينة 1956م.
(3) الهاشمي التجاني: مقابلة معه في مكتبه بالجزائر العاصمة بتاريخ 04-08-1999م.
(4) الفضيل الورتيلاني: أندية التهذيب، البصائر ، 1937م.
(5) نفسه: الرسالة التربوية والتعليمية، المصدر نفسه.
(6) الصالح بن عتيق: أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، الجزائر 1989م.
(7) الصالح بن عتيق: البعثة والفضيل الورتيلاني، البصائر، م.س.
(8) الأميري: عمل الورتيلاني بفرنسا، المرجع نفسه.
(9) علي مرّحوم: جهاد الفضيل الورتيلاني، الثقافة، 1970م.
(10) محمد الطاهر فضلاء: دور الفضيل الورتيلاني في فرنسا، الثقافة، م.س.
(11) مجلة المسلمون: الخطابة، العدد 1، م5 مصر 1956م.
(12) محمد الصالح الصديق: الحركة الإصلاحية، الجزائر الثائرة، الجزائر 1991م.
(13) الفضيل الورتيلاني: الوحدة والإتحاد، الجزائر الثائرة 1956م.
(14) عبد اللطيف دراز: وكيل الأزهر.

(15) احمد كمال عادل: جهاد الفضيل الورتيلاني، النقاط فوق الحروف، القاهرة 1987م ط1، الزهراء للإعلام العربي. ص67.

(16) مجهول: النضال السياسي للفضيل الورتيلاني، الشهاب، الجزائر مارس-افريل 1981م، العدد86.

(17) الفضيل الورتيلاني: خطابات مفتوحة من الورتيلاني إلى سفير فرنسا بمصر. مصر الفتاة،(-14 نوفمبر1945م) كتبها في الفترة التي كان يشغل فيها منصب أمين عام لجبهة الدفاع عن شمال إفريقيا والتي كان يرأسها السيد محمد الخضر حسين. أنظر، الجزائر الثائرة، م.س.

(18) الفضيل الورتيلاني: قضية الجزائر، البصائر، س2، قسنطينة 22. 10. 1954م، العدد 290.

(19) الفضيل الورتيلاني: قضايا الأمة، البصائر، س2، قسنطينة 27 سبتمبر1954م، العدد 286، ص2.

(20) نفسه: ص4.

(21) الفضيل الورتيلاني: قضية فلسطين، بيروت المساء والمنار الدمشقية، دمشق 13 اكتوبر1955م. ص5.

وانظر أيضا: الجزائر الثائرة، م.س، ص89.

(22) محمد عبد اللطيف دراز: الجمعيات والمنظمات السياسية، الثقافة، م.س، ص26.

(23) علي مرحوم: الإستعمار الفرنسي في الجزائر، الثقافة، م.س.

(24) نفسه.

(25) عبد الحميد بن باديس: الرسالة. قسنطينة، 5أوت 1938م.

(26) مصطفى سالم: البعثة العلمية، إبن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، ط1، الجزائر 1989م.

(27) الفضيل الورتيلاني: جهاد الثوار في الجزائر، البصائر، م.س، ص2.

(28) الفضيل الورتيلاني: مكافحة الفكر الإستعماري، الجزائر الثائرة، م.س ص 473.

(29) الفضيل الورتيلاني: الإصلاح في اليمن، الجزائر الثائرة، م.س.

(30) أحمد بن محمد الشامي: الفضيل الورتيلاني والقوى الوطنية، المصدر نفسه.

(31) أحمد بن محمد الشامي: نشاط الفضيل الورتيلاني في اليمن، المصدر نفسه.

(32) أحمد بن محمد الشامي: دور الفضيل الورتيلاني في إصلاح شؤون اليمن، المصدر نفسه.

(33) أحمد بن محمد الشامي: الإصلاحات باليمن.

(34) الشيخ الفضيل الورتيلاني: الرسالة، مؤرخة بتاريخ 7 ماي 1948م.

(35) محمد البشير الإبراهيمي: براءة الفضيل الورتيلاني، البصائر، م.س.

(36) محمد البشير الإبراهيمي: قرار العفو، البصائر، قسنطينة، 5 نوفمبر 1951م.